﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرحمن: 41 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ السِّرِّ في عدمِ السُّؤالِ، وتوضيحُ عاقبةِ المجرمينَ وسوءِ مآلهم

لمّا كان الكلامُ في الآيةِ السّابقةِ عامًّا في نفي سؤالِ الاستعلامِ أو التَّشفُّعِ في العفو؛ جاءت هذه الآيةُ؛ لتوضِّحَ أنَّ هذا النَّفيَ وإن كانَ عامًّا، فإنَّهُ خاصٌّ بتعرُّفِ المجرمِ من غيره، فجاءتِ الآيةُ تعليلًا لعدم السُّؤال؛ لأنَّ المجرمينَ يُعرفونَ بالعلامات التي صَوَّر اللّهُ ذنوبَهم فيها، فجعلها ظاهرةً بعد أن كانت باطنةً، ثمَّ أوضحت بدايةَ عذابهم، وهي الأخذ بمقدِّمات الرُّؤوس وبأقدامهم فيُلقَون في النّار.

ولمّا كان ذلك نعمةً لا يُقام بشُكرها؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ ينتفي من الإجرام، ويَودُّ للمجرمينَ عظيمَ الانتقام، فقد كرَّرَ التَّقرير للمؤمنين والتَّوبيخَ للكافرينَ.

ولمّا كان أخذهم على هذا الوجه مُؤذِنًا بأنَّه يصير إلى خزي عظيم، صرَّح به، بانيًا على ما هدى إليه السّياقُ، مِن نحو: يُؤْخَذُ أخذًا مَقولًا فيه عند وصولهم إلى محلِّ النَّكالِ على الحال التي ذُكرت من الأخذ بنواصيهم وأقدامهم: هذه جهنَّمُ التي يُكَذِّبُ بها العريقونَ في الإجرام، ثمَّ استأنف بيانَ ما يُفعَل بهم فيها، فذكر طوافَهم بين دركات النّار التي تتجهَّمهم، وبين الماء الحارِّ الذي بلغ الغايةَ في غليانه.

ولمّا كان عذابُ المجرمِ القاطعُ لما من شأنه أن يكون متَّصلًا، من أكبر النِّعم وأسَرِّها لكلِّ أحدٍ، حتّى لمَن سواه من المجرمين، فقد كرَّر

التَّقريرَ والتَّوبيخَ لُطفًا بالمُهَدَّدين؛ ليرتدِعوا، ويَنْزَجِروا عمّا يكونُ سببَ إهلاكِهم هم ومن والاهم، وقد كُرِّرت هذه الآيةُ عقبَ ذِكر النّار وأهوالِها سبعَ مرّات؛ تنبيهًا على استدفاع أبوابِها السَّبعة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: (جرم) أصلٌ واحدٌ ترجعُ إليه الفروعُ، فالجَرْمُ القَطْعُ، يُقال لصَرّام النَّخلِ: الجَرّامُ، وجَرَمتُ صوفَ الشّاةِ، والجُرمُ والجَريمةُ: الذَّنبُ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقتطاعٌ، ولا جَرَمَ من قولِهم: جَرَمْتُ، أي: كَسَبْتُ، والجارِمُ: الكاسِبُ[2]، وأجْرَمَ: صار ذا جُرمٍ، واستُعير ذلك لكلِّ اكتسابٍ مَكروهٍ، ولا يكاد يقال في عامَّة كلامهم للكيِّس المحمودِ[3]، ومن معنى الجرم أنَّه كتلةٌ كبيرةٌ ثقيلةٌ، ولذا فالجُرم لا يُطْلَق إلّا على الذَّنب الغليظ، لا على مطلقِ الذَّنبِ، فالمُجْرِم: من حمل جُرمًا كالآثمِ والوازرِ، على المعنى الوارد في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، وقد فُسِّر لفظُ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40]، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40] بالكافرين، ولا وِزْرَ أثقلُ من الكفر[4]، والمراد بالمجرمين، أي: القاطِعينَ لِما أمَرَ اللّه بِهِ أن يوصَلَ؛ لتكذيبِهِمُ الرُّسلَ الذينَ همُ الهداةُ إلى ما لا تستَقِلُّ بِهِ العقولُ، فكذّبوا بالآخرةِ التي يُنتِجُ التَّصديقُ بها كلَّ هُدًى، ويورِثُ التَّكذيبُ بها كلَّ عمًى[5].

2) ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: (وسم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على أثرٍ ومَعلم، ووسمتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرتُ فيه بسِمةٍ، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطرِ؛ لأنَّه يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وفلانٌ موسومٌ بالخير[6]، وفلانةٌ ذاتُ ميسَم؛ إذا كان عليها أثرُ الجمالِ، والوسامةُ: الجمالُ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: 75]، أي: النّاظرينَ في السِّمةِ الدّالَّةِ[7]، والمعنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 176 - 179.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 207.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وسم).

المِحوريُّ: التَّأثيرُ في ظاهرِ الشَّيءِ بأثرٍ غائرٍ لازمٍ، يَدُلُّ على شيءٍ[1]، والوَسْمُ: التَّأثير، والسِّمَةُ: الأثرُ، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: 273][2]، والمرادُ: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ هاهُنا، أي: بعَلامَتِهِمُ المُمَيِّزَةِ لَهم، وهي سَوادُ وُجوهِهِم، وزُرْقَةُ عُيونِهِم، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزّمر: 60][3].

3) ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾: (نصا) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَخَيُّرٍ وخطرٍ في الشَّيءِ وعُلوٍّ، ومنهُ: النَّصيَّةُ من القومِ ومن كلِّ شيءٍ: الخيارُ، ويقال: انتصيتُ الشَّيءَ: اخترتُه، ومنه النّاصيةُ: سُمّيتْ لارتفاعِ مَنْبِتِها، والنّاصيةُ: قُصاصُ الشَّعرِ[4]، والمعنى المِحوريُّ: أوَّلُ الشَّيءِ، أو أعلاه الممتدُّ الذي تَتبَعُه بقيَّتُه: كشَعرِ النّاصيةِ، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: 56]، وهذا كنايةٌ عن غايةِ التَّمَكُّن من صاحب النّاصيةِ[5]، وكقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 15 - 16]، وهذا في الدُّنيا تهديدٌ أو إنذارٌ[6]، وأمّا في الآخرة فقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾، أي: يُؤخَذ بناصيته وقَدَمَيْه، فيوطَأ، ويُجمَع كالحطب، ويُلقى كذلك في النّار[7].

4) ﴿يَطُوفُونَ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحَفَّ بهِ، ثمّ يُحْمَلَ عليه، يقال: طافَ بهِ وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا[8]، وطاف بالقومِ وعليهم طَوْفًا وطوفانًا ومَطافًا، وأطافَ: استدارَ، وجاءَ من نَواحيهِ، وأطافَ فلانٌ بالأمرِ: إذا أحاطَ بهِ[9]، والمعنى المِحوريُّ: غِشْيان الشَّيءِ، بغلَبَةٍ أو قوَّةٍ، غِشْيانًا يَعُمُّ حدودَه، أي: جوانبَه، أو أعلاه، كالطّوفان يَغْشَى وجه الأرضِ، ويُغطّي كلَّ ما عليها، كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]، والطَّوافُ: غِشْيانٌ لجوانبِ ما يُطاف به،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (وسم).
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 806.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصا).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصو).
(6) الرّاغب، مفردات القرآن: (نصا).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 66.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طوف).

كقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجّ: 29][1]، ومعنى ﴿يَطُوفُونَ﴾ هاهُنا: يمشونَ بين مكان النّارِ وبين الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النّارِ؛ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فلاحَ لهم الماءُ، فذهبوا إليهِ، فأصابَهم حَرُّهُ، فانصَرَفوا إلى النّارِ دَوالَيكَ، وهذا كَقَولِهِ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29][2].

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حمم) فيه تفاوتٌ؛ لأنَّه متشَعِّبُ الأبوابِ جدًّا، فأحدُ أصولِه: اسودادٌ، والآخرُ: الحرارةُ، والثّالثُ: الدُّنوُّ والحُضورُ، والرّابعُ: جنسٌ من الصّوتِ، والخامسُ: القصدُ، فأمّا السّوادُ: فالحَمَمُ الفَحْمُ، ومنه اليَحمومُ، وهو الدُّخانُ، وأمّا الحرارةُ: فالحميمُ الماءُ الحارُّ، والاستحمامُ: الاغتسالُ به، ومنه الحميمُ، وهو العَرَق، وأمّا الدُّنوُّ والحضورُ؛ فيقولون: أحَمَّتِ الحاجةُ: حضرت، وأحَمَّ الأمرُ: دنا، وأمّا القصدُ؛ فقولهم حممتُ حَمَّه، أي: قصدتُ قصدَه[3]، وحُمَّ هَذا الأمرُ؛ إذا قُضي قضاؤُهُ، قالَ: والحِمامُ: قضاءُ المَوْت، والحَميمُ كذلك: الماء البارِدُ، فهو من الأضداد، يكون الماءَ الحارَّ، ويكون البارِد[4]، والمعنى المحوريُّ: حرارةٌ أو حِدَّةٌ تسري في أثناءِ الشَّيءِ البارِدِ حتّى تَعُمَّه[5]، والحميم هاهُنا: الماءُ المَغْليُّ الشَّديدُ الحَرارَة[6].

6) ﴿ءَانٍ﴾: (أنى) له أصول أربعة: البُطءُ وما أشبَهَه من الحِلم وغيره، وساعةٌ من الزَّمان، وإدراكُ الشَّيءِ، وظَرفٌ من الظُّروفِ، أمّا الأولُ: فالأناةُ الحِلْمُ، ويقال: للتَّمكُّثِ في الأمور: التَّأنّي[7]، وتقول للرَّجل: إنَّه لذو أناةٍ، أي: لا يعجل في الأمور، وهو آنٍ متأنٍّ[8]، وأمّا الزَّمانُ: فالإنَى والأنى، ساعة من ساعات اللَّيل، والجمع آناءٌ، وكلُّ إنًى ساعةٌ، وأمّا إدراك الشَّيء فالإنَى، تقول: انتظرنا إنَى اللَّحم، أيْ: إدراكَهُ، قال الله تعالى: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحديد: 16]، أي: ألَمْ يَحِنْ، واستأنيتُ الطَّعامَ، أي: انتظرتُ إدراكَه، و﴿حَمِيمٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طوف، طيف).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين: (حمم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حمم).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).
(8) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (أنى).

ءَانٍ﴾: قد انتهى حَرُّه، وأمّا الظَّرْفُ؛ فالإناء، وجمعه الآنية، وجمع الجمع: الأواني[1]، والمعنى المحوريُّ: تهيُّؤُ الشَّيءِ وصُلوحُ حالِه لما يُراد به، ومنه الأواني التي تُهَيِّئُ الطَّعامَ للتَّناول، ومن الظَّرف المكانيِّ استُعْمِل في الزَّمانيِّ، أي: مُدَّةُ البقاء إلى أوانِ الاستعمالِ، أي: حين صُلوحه لذلك، ثمَّ أُطلِقَ في بلوغ ما يوضَع على النّار غايةَ ما يكون مِن تَأثُّره بها، ومنه أنَى الماءُ الذي يُسَخَّن، أي: سَخُنَ، وبَلَغ في الحرارة، وأنَى الحميمُ: انتهى حَرُّه، أي: بلغ أقصى المرادِ في الحرارةِ، وهو المعنى المرادُ في قولِه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ في هذه الآياتِ سوءَ مصيرِ المجرمينَ المُكذِّبينَ من الثَّقلَين، وأوَّلُ علاماتِ سوءِ المصيرِ، أنَّهم يصبحون بعد خروجهم من القبور معروفينَ بعلاماتٍ تخصُّهم، فلا مجال لهم للهرب، ولا الإنكارِ، فتتولّى زبانيَةُ جهنَّمَ أمرَهم، فتأخذُ بنواصيهم وأقدامهم في الوقت نفسه، فلا تَدَعُ لهم مَهْربًا، أخذًا عزيزًا متمكِّنًا، فلا يتحرَّك منهم أحدٌ، فهو في هذا الوضع أشبه بحَجَر، أو حصاةٍ في اليد، فيُلقى به في قَعْر جهنَّم، وعلى الرَّغم من شدَّةِ هذا المصير، فإنَّ فيه إقامةً لموازين العدل بين المخلوقات، وأخذًا للمُسيء بإساءته؛ لذا كان من النِّعَم التي تستوجب الحمدَ والشُّكر، ثمَّ زادَ البيانُ القرآنيُّ في عذاب هؤلاء المجرمينَ، فأشارَ إلى جهنَّمَ؛ استحضارًا لها بين يدي المُكذِّبين بها؛ إذ يشهدون أنفسَهم، وهم يطوفون بين شِدَّةِ حرِّها ومائِها المَغليِّ الذي تناهت حرارتُه وغليانُه، فكانت حركتُهم فيها على بحارٍ من الحميم، وهو القيح والصَّديد الذي يسيل منهم، كما يسيل الماءُ من القُدور أثناءَ غليانِها، ثمَّ بيَّنَ

سـوءُ مـصـيـرِ المجرمينَ وشدَّةُ هوانِهم وهولُ عذابِهم، جزاءٌ لاستكبارهم وعُتوِّهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنو، أني).

النَّظمُ الجليلُ أنَّ هذا العذابَ الشَّديدَ يحملُ في طيّاته نعمةً عُظمى لأهل الدُّنيا أجمعين؛ إذ من شأنه أن يبعث في النُّفوس الخشيةَ من الله، والخوفَ من الوقوع في هذا العذاب، فيستعدَّ أصحابُ العقول للقاء هذا اليوم، بالعمل الصّالحِ الذي يُنَجّيهم من الوقوعِ فى هذا البلاءِ، على خلافِ ما لو طلعَ هذا العذابُ على النّاس من غير أن يُنْذَروا به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

انـتـفـاءُ سـؤالِ المجرمينَ لظهورِ أمـــاراتِ سـوءِ مصيرهم

جاءَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا جاريًا مَجْرى التَّعْليلِ؛ لانتفاءِ السُّؤالِ في قولِه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[2]، أي: يُستغْنَى عن سؤالهم بظهورِ عَلاماتِهم للملائكةِ ولأهل المحشرِ، ويَعرفونهم بسيماهم، فيُؤخذونَ أخذَ عقابٍ، ويساقونَ إلى الجزاءِ[3].

دلالة التَّعبير بالفعلِ المُضارعِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿يُعْرَفُ﴾:

تـجـدُّدُ معـرفـةِ الـمـلائـكـة للمجرمينَ مهما حـاولـوا الـهَـرَبَ والإنكارَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعةِ، في قولِ الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ لبيانِ تجدُّدِ معرفَةِ ملائكة العذابِ للمُجرمينَ بمُجرَّدِ خروجهم من قُبورهم، وكذلك ففي التَّعبيرِ بالمضارَعَةِ إشارةٌ لاستحضارِ حالِ المفاجأةِ، فالمقصودُ تصويرُ حالهم، وقد عرفتهم الملائكةُ، فلا يبقى لهم مجالٌ للهربِ أو الإنكارِ، وهو امتدادٌ للتَّحدّي في قولِه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، وعبَّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ لشِدَّةِ وضوحِ الأماراتِ والعلاماتِ، فلا تحتاجُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 688 - 689.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 262.

إلى كبيرِ جهدٍ في معرفتها، بل كلُّ مَن يشاهدهم يعرفُ على الفورِ أنَّهم أصحابُ الجحيم، فالمرادُ: يعرفهم النّاسُ والملائكةُ الذين يحتاجونَ في معرفتهم إلى علامةٍ، أمّا كَتَبةُ الأعمالِ والملائكةُ الغِلاظُ الشِّدادُ، فيعرفونهم كما يعرفون أنفسَهم، من غير احتياجٍ إلى علامة، والمعنى: يكونون معروفين عندَ كُلِّ أحدٍ[1].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بنائبِ الفاعلِ بلفظ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دون غيره:

التَّعبيرُ بالإجرامِ أنسبُ لكبائرِ الذُّنوبِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عمَّن تأخذهم ملائكةُ العذابِ من الكافرينَ من الثَّقلَينِ بلفظِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دون غيره من الألفاظِ؛ وذلك لأنَّ إنكارَ كلِّ ما سبقَ في السّورةِ الكريمةِ من الآلاءِ الظّاهرةِ والحُجَجِ البيِّنَةِ، ذنبٌ كبيرٌ ثقيلٌ، فكانَ من الأنسب التَّعبيرُ بمادَّةِ الإجرامِ؛ لأنَّ الجُرم لا يُطلَق إلّا على الذَّنب الغليظ، لا على مطلق الذَّنب[2]، والمرادُ بالمجرمين: العَريقونَ في هَذا الوَصْفِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُظْهَرِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دونَ المُضمَر:

تحديدُ المقصودينَ بالوعيدِ للتَّنبيه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ بلفظِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالمُضمَرِ (يُعرفونَ)؛ إشارةً إلى أنَّ المرادَ بعضٌ من الإنسِ وبعضٌ من الجنِّ، فهُم المجرمون، فيكون ذلك كقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: 78][4].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾:

سيماءُ المجرمينَ سببٌ في التَّعرُّفِ عليهم

الباءُ في ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ للسَّبَبيَّةِ؛ إذِ المعنى أنَّ سيماءَ هؤلاءِ المجرمينَ سببٌ في التَّعرُّفِ عليهم دون حاجةٍ إلى سؤالٍ أو استفسارٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسّيماءِ، والغرضُ من الإضافةِ:

السّيماءُ هي علاماتُ الحُزْنِ والكآبةِ الدّائمةِ المُمَيِّزَةِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالسّيماءِ في ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ دون

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرم).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 176.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

(علاماتهم) أو أماراتهم؛ لأنَّ معنى السّيماء يدورُ حول التَّأثيرِ في ظاهرِ الشَّيءِ بأثرٍ غائرٍ لازمٍ يَدُلُّ على شيءٍ[1]، ففي استعمالِ لفظِ (سيماهُم) معنى العلامةِ المُمَيِّزَة الدّائمة، فهذه العلاماتُ لا تنفكُّ عنهم، وهو يحتَمِلُ وجوهًا، أحدُها: كَيٌّ عَلى جِباهِهِم، قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التّوبة: 35]. ثانيها: سَوادٌ كَما قال تَعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: 106]، وقالَ تَعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزّمر: 60]. ثالثُها: غَبَرَةٌ وقَتَرَةٌ[2]، وقيلَ: هو ما يَعْلوهم مِنَ الكآبةِ والحُزْنِ[3]، والإضافةُ للتَّخصيصِ توبيخًا لهم.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَيُؤْخَذُ﴾:

في ترتيبِ الأخذ على المعرفةِ ما يُشيرُ إلى سرعةِ العقابِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عاطفةٌ تُفيدُ معنى التَّرتيبِ والتَّعقيبِ والسُّرعة، فإنَّ أخذَ المجرمينَ جاءَ عَقِبَ المعرفةِ بهم، وهو مُتَرتِّبٌ على هذه المعرفةِ، وهو كذلك أخذٌ سريعٌ مفاجِئٌ، فلا يكونُ ثَمَّةَ مجالٌ للهَربِ ولا للإنكارِ، وفي ذلك كلِّه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ والإنذارِ ما يُحَذِّرُ المجرمينَ، ويَرْدَعُهم عن الغَيِّ والاستمرارِ في تكذيبِ الآلاءِ الواضحاتِ.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿فَيُؤْخَذُ﴾:

في التَّعبيرِ بالمضارعِ استحضارٌ لصورةِ المجرمينَ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغة المضارعة، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ لاستحضارِ صورةِ الأخذِ، وللمبالغةِ في تصويره، ففي التَّعبير بالمضارعِ تجسيدٌ لحركةِ الأخذِ، وترهيبٌ من سوءِ العاقبةِ والمصير، وإبهامُ الفاعلِ؛ لأنَّهُ كالمُتَعَيِّنِ، وقيلَ: للرَّمزِ إلى عَظَمَتِهِ[4]، فقَد جاء الأثرُ في صِفَةِ النّارِ أنَّ مَلائِكَةَ جَهَنَّمَ خُلِقَتْ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 174.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

قَبْلَ أنْ تُخْلَقَ جَهَنَّمُ بألْفِ عامٍ، فهُم كُلَّ يَومٍ يَزدادونَ قوَّةً إلى قوَّتِهم حَتّى يَقبِضوا عَلى مَن قَبَضوا بالنَّواصي والأقدامِ[1].

سرُّ إسناد الفعل لضمير المفرد:

المقصودُ بيانُ نكالِهم ومهانتِهم لا مجرَّدُ أخذهم

عدَلَ النَّظمُ الجليلُ عن مقتضى الظّاهرِ في قولِه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، فلم يقلْ: (فيؤخذونَ بالنّواصي والأقدامِ)، أو (فتُؤْخَذُ النّواصي والأقدامُ)، وإنَّما عدَلَ عن هذا التركيب إلى قولِه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بيانُ النَّكال؛ إذْ لمّا قالَ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾؛ بيَّنَ كيفيَّةَ الأخذِ، وجَعَلَها مقصودَ الكلامِ، ولو قال: (فَيُؤْخَذون)؛ لكان الكلامُ يتمُّ عندَه، ويكون قولُه: ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ فائدةً جاءتْ بعدَ تمامِ الكَلامِ؛ فلا يكونُ هو المقصودَ، وأمّا إذا قال: ﴿فَيُؤْخَذُ﴾، فلا بدَّ لَه من أمرٍ يتعلَّقُ به، فينتظِرُ السّامعُ وجودَ ذلكَ، فإذا قال: ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾؛ يكون هذا هو المقصودَ، وفي كيفيَّة الأخذ ظهورُ نكالهم[2].

بلاغة التَّعبيرِ بالكنايةِ في ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾:

الجمعُ بينَ العذابِ الأليمِ وشدَّةِ المهانةِ والإذلالِ

جاءَ التَّعبيرُ بالأخذ بنواصي المجرمينَ وأقدامِهم، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ بيانًا لشِدَّةِ المهانةِ والإذلالِ؛ إذ في هذه الهيئةِ منَ الاحتقارِ والصَّغارِ ما يُنَبِّه إلى سوءِ مصيرِ المجرمين، وفي كيفيَّة الأخذِ بالنَّواصي والأقدامِ وجهانِ، أحدهما: يُجمَعُ بين ناصيتِهم وأقدامهم، وعلى هذا ففيه قولان، **الأوَّلُ**: أنَّ ذلك قد يكون من جانبِ ظهورِهم فيُربَطُ بنواصيهم أقدامُهم من جانب الظَّهرِ، فتخرج صدورُهم نَتْأً. **والثّاني**: أنَّ ذلك من جانبِ وجوهِهم، فتكون رؤوسهم على رُكَبِهم، ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطةً. والوجه الثّاني: أنَّهم يُسْحَبون سحبًا، فبعضُهم يُؤخَذ بناصيته، وبعضُهم

(1) رواه ابن مردويه والضّياء المقدسيّ في صفة النّار، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 705.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.

يُجَرُّ برِجلِه، والأوَّلُ أصحُّ وأوضحُ[1]، فيُفعَلُ ذلك بهم؛ ليكونَ أشدَّ لعذابهم وأكثرَ لتَشويههم[2].

معنَى الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ للآلةِ، كما في: (أخَذْت بالخِطام)، أو للتَّعديَة؛ لتضمينه معنى (يسحبون)، أو أن يكونَ (يُؤْخَذُ) ضُمِّنَ معنى ﴿يُدَعُّونَ﴾ [الطّور: 13]، أي: يُدْفَعون، تقولُ: أخَذْتُ النّاصيةَ، وأخَذْتُ بالنّاصية، ولو قلت: أخَذْتُ الدّابَّةَ بالنّاصيةِ، لم يَجُزْ، وحُكيَ عن العرب: أخَذْتُ الخِطامَ، وأخَذْتُ بالخِطام بمعنًى، أو أن يكون التَّقدير: فيُؤْخَذُ كلُّ واحدٍ بالنَّواصي[3].

الباءُ إمّا للآلةِ أو لتضمينِ (يُؤْخَذُ) معنى (يُسْحَبونَ) أو (يُدَعّونَ)

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿بِٱلنَّوَاصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾:

اللّامُ في لفظي (النّواصي) و(الأقدام) في قولِه: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ إمّا أن تكون للتَّعريفِ، أو أنَّها عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ المُضمرِ، أي: (بنواصيهم وأقدامِهم)، أو أنَّها عِوَضٌ عن الضَّمير على مذهبِ الكوفيين، أو أنَّ الضَّميرَ محذوفٌ على مذهب البصريين، والتَّقديرُ عندهم: (يُؤخَذُ بالنّواصي والأقدامِ منهم)، والخِلاف بين الفريقينِ فيما إذا احتيجَ إلى الضَّمير للرَّبط، ولا احتياجَ إليه هنا[4]، وعلى أيِّ حالٍ، فسواءٌ أكانت اللّام عوضًا عن الضَّميرِ المحذوفِ، أو كان الضَّميرُ محذوفًا بدونِ عِوضٍ، ففي تعريفِ النَّواصي والأقدامِ تهويلٌ وتخويفٌ لهؤلاءِ المجرمينَ المُتكبِّرين.

التَّعريف في النَّواصي والأقدام للتَّهويل والتَّخويفِ

دلالةُ وقوعِ شِبْهِ الجملة نائبَ فاعل ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾:

قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّوَاصِي﴾ قائمٌ مقامَ الفاعل؛ لقوله: ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾،

في مجيءِ (بِالنَّواصي) نائبًا عن الفاعلِ اهتمامٌ بكيفيَّةِ الأخذِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 175.
(3) مكّي بن أبي طالب القيسيّ، مشكل إعراب القرآن: 2/ 707، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 66، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 176.
(4) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضيّ: 8/ 135، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114.

والتَّقدير: بالنَّواصي منهم أو بنواصيهم، وليس في قوله: ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾ ضميرٌ يقومُ مقامَ الفاعل يعود على المجرمين؛ لأنَّ العربَ تقول: أخذت النَّصيَّةَ، وأخذتُ بالنّاصيةِ، ولا تكاد تقول: (أخذتُ الدّابَّةَ بالنّاصية) بأن تُعَدّيَ (أخذ) إلى مفعولين؛ إلى أحدِهما بنفسِه، وإلى الآخر بواسطة الباء، ولأنَّه لو كان فيه ضميرٌ لوجبَ أن يقال: (فيؤخَذون) لأجْلِ تَقَدُّم ذِكرِهم[1]، وفي مجيءِ ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ نائبًا عن الفاعلِ اهتمامٌ بكيفيَّةِ الأخذِ، والتَّرهيبِ منه.

دلالةُ العَطفِ، وسِرُّ الاقتصارِ في الأخذِ على النَّواصي والأقدامِ:

العطفُ لبيانِ شدَّةِ إحكامِ القيد

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ (الأقدام) على ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾؛ ليُفيدَ شِدَّةَ إحكامِ وثاقِ المجرمينَ المعانِدين، فلو اقتصرَ الأخذُ على النَّواصي فحسبُ؛ لكانَ المعنى أنَّهم يُسحبونَ، ويُجرّونَ منها وحدَها، ولكنَّه لمّا عطَفَ الأقدام على النَّواصي؛ أفادَ المبالغةَ في إحكامِ قبضةِ ملائكة العذابِ، واقتصر على النَّواصي والأقدام؛ لأنَّ النّواصيَ أوَّلُ الشَّيءِ، أو أعلاه الممتدُّ الذي تَتْبَعُه بقيَّتُه: كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: 56]، وهذا كنايةٌ عن غايةِ التَّمكُّن من صاحب النّاصية[2]، وهو هنا شعرُ الرَّأسِ، وفي ذِكرِ الأقدام بيانٌ لإحكامِ الوِثاقِ لأدنى الجسدِ، فصار ما بين الأعلى والأدنى مُحْكَمًا إحكامًا تامًّا؛ فأغْنَيا عن ذِكر ما عداهما من أجزاءِ الجسدِ.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعدَ ذِكرِ شدَّةِ العذابِ جاءَ التَّقريرُ، والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من التَّخويفِ والإنذارِ، والتَّرهيبِ من شدَّةِ العذاب والإذلالِ، وفيه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يصدُّ عن سلوكِ سبيل هؤلاء المجرمينَ المُعَذَّبينَ.

(1) محيّ الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصو).

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّخويفُ من العذاب الشَّديدِ والإذلالِ المُهينِ

اشتملتِ الآيةُ على بيانٍ لعذابِ المجرمينَ في الآخرة، وتفصيلٍ لكيفيَّةِ أخذِهم والإلقاءِ بهم في النّارِ في هيئة ذليلةٍ مُهينةٍ، ورغم ذلك فقد عَقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسها، وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين، وتتمثَّلُ نعمةُ الله فيما ذكره من هول العذاب في نجاةِ النّاجي منه برحمته وفضله، وما في الإنذار به من اللُّطف[1]، ذلك أنَّ الله تعالى مُنْعِمٌ على عباده نعمتين، نعمة الدُّنيا ونعمة الدّين، وأعظمُها في الأخرى، واجتهادُ الإنسانِ رهبةً ممّا يُؤْلِمُه أكثرُ من اجتهاده رغبةً فيما يُنَعِّمُه، فالتَّرهيبُ زجرٌ عن المعاصي وبعثٌ على الطّاعات، وهو سببُ النَّفعِ الدّائم، فأيَّةُ نعمةٍ أكبرُ إذًا من التَّخويف بالضَّرر المُؤدّي إلى أشرف النِّعم؟ فلمّا جاز ذلك عند ذكر ما أنعم به علينا في الدُّنيا؛ جاز أن يقوله أيضًا عند ذِكر ما تخوَّفَنا به ممّا يصرفنا عن معصيته إلى طاعته التي تُكسبنا نعيم جنَّتَه؛ لأنَّ هذا أسْوَقُ إلى تلك الكرامةِ من وصفِ ما أعدَّ فيها من النِّعمة[2].

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾:

في الجمع بين العذابِ البَدَنيِّ والعذابِ المعنويِّ

جملة قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقعتِ استئنافًا في جواب سؤالٍ، فحواه: ماذا يُقال لهم عند أخذهم وإلقائهم في النّارِ؟ وذلكَ لأنَّه مَظِنَّةٌ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ، أو لأنَّها جاءتْ حالًا من أصحاب النَّواصي؛ بناءً على أنَّ التَّقدير: نواصيهم أو النَّواصي منهم[3].

الغرضُ من تعريفِ المُسندِ إليهِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

أشارَ النَّظمُ الجليلُ إلى ﴿جَهَنَّمُ﴾ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 170 - 171.
(2) الخطيب الإسكافيّ، درّةُ التّنزيل وغرّة التّأويل: 3/ 1240 - 1241.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 114، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 208 - 209.

والمشهور أنَّ هاهنا إضمارًا تقديرُه: يقال لهم: هذه جَهَنَّمُ، ويحتمل أن يقال: معناه: هذه صفةُ جهنَّمَ، فأُقيم المضافُ إليه مقامَ المضافِ، ويكون ما تقدَّم هو المشار إليه، والأقوى أن يقال: الكلامُ عند النَّواصي والأقدام قد تمَّ، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ لقُربها، كما يقال: (هذا زيدٌ، قد وصل)؛ إذا قَرُبَ مكانُه، فكأنَّه قال: جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ هذه قريبةٌ غيرُ بعيدةٍ عنهم، ويلائمُه قولُه: ﴿يُكَذِّبُ﴾؛ لأنَّ الكلامَ لو كان بإضمار (يقال)؛ لقالَ تعالى لهم: (هذه جَهنم التي كَذَّبَ بها المجرمونَ)؛ لأنَّه في هذا الوقت لا يبقى مُكَذِّبٌ، وعلى هذا التَّقدير يُضمرُ فيه: كان يُكَذِّبُ[1].

في تَعريف جهنَّمَ باسم الإشارةِ استحضارٌ لها

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ﴿جَهَنَّمُ﴾ خَبَرًا:

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عن مكان إلقاءِ المجرمينَ في النّارِ بلفظِ: ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ إشارةً إلى بُعدِ قَعْرِها، مع ما هم فيه من القيدِ الشَّديدِ المُهينِ، زيادةً في العذاب، وكذلك لِما تَلقاهُم به النّارُ من التَّجَهُّم والوحشةِ والكَلاحةِ[2]، فكانَ في إيثارِ هذا اللَّفظِ دلالةٌ على العذاب النَّفسيِّ إلى جوار العذاب البدنيِّ المُهين؛ توبيخًا ونكالًا بهؤلاء المجرمينَ.

تَجَهُّمُ النّارِ للمجرمينَ جمعٌ بينَ العذابِ النَّفسيِّ والبدنيِّ

الغَرضُ من وصفِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّتِى﴾:

وصفَ النَّظمُ الجليلُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ بالاسم الموصولِ وجملةِ الصِّلةِ، في قولِه: ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وعدلَ عن الوصفِ باسم المفعولِ (المُكَذَّبُ بها)؛ وذلك لما في الوصف بالاسم الموصولِ وصلته من التَّأكيد واللُّزوم والشُّهرة، فكان الوصفُ مشيرًا لتأصُّلِ صفةِ التَّكذيبِ بجهنَّم في هؤلاء المجرمينَ، رغمَ شهرتِها ومعرفةِ الخَلْقِ جميعًا بها، حتَّى أصبحَ تكذيبُهم بها معروفًا لدى العامَّةِ والخاصَّةِ،

اشتهارُ المجرمينَ بالتَّكذيبِ بالآخرةِ رغمَ كثرةِ البيِّناتِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 178.

وكأنَّ تكذيبَهم بها أصبح عَلَمًا عليهم، وغَدَوا مشهورينَ بموقفهم المُكَذِّبِ للآلاءِ البيِّناتِ، والدَّلائل الواضحاتِ الدّالَّةِ على وجودِ جهنَّم في الآخرةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا مُضارعًا:

استمرارُ تكذيبِ المجرمينَ بالنّارِ في الدُّنيا سبب هلاكهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعةِ ﴿يُكَذِّبُ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يكون التَّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ، فيقول: (التي كذَّبتُم بها)، فعدل عنه للدَّلالة على استمرارِ ذلكَ، وبيانًا لوجهِ توبيخهم وعِلَّته[1]، وأشارَ بعضهم إلى أنَّ التَّعبير بالمضارعِ لقُرْب حضورِها، لا لحضورها فعلًا[2]، وأشار آخرون إلى أنَّ المُرادَ استمرارُ التَّكذيبِ وتجدُّدُه في الدُّنيا[3]، إذِ المرادُ على هذا القول: هذه جهنَّم التي كنتم تكذبون بها وتقولون: إنَّها لا تكون[4]، ويجوز أن يكون هذا الكلام خطابًا من اللّه لنبيِّه في الدُّنيا، أي: قل لهم هذه صفة جهنَّم، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامَه[5].

مَعنَى الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

شدَّةُ تحرّي المجرمينَ للتَّكذيبِ حتَّى كأنَّهم ملتصقونَ به

جاءت الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ على أصلِ معناها، وهو الإلصاقُ[6]، ففيها دلالةٌ على شدَّةِ تحرّي المجرمينَ للتَّكذيبِ بالنّارِ في الدُّنيا، مهما جاءتهم الدَّلائل البيِّناتُ، لِعَراقتهم في الكفرِ والبُهتان.

الغرضُ من تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

ما حلَّ المجرمونَ في قعرِ جهنَّمَ إلّا لتكذيبهم باليومِ الآخر

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بمناطِ

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 135.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 368.
(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 23/ 14833.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 180.
(5) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(6) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 19.

التَّكذيبِ، وهو التَّكذيبُ بالنّارِ التي هي من أهمِّ معالم اليومِ الآخرِ، وما فيه من جزاءٍ وعقابٍ، وكذلك فإنَّ في التَّقديمِ إشارةً إلى أنَّ التَّكذيبَ بها هو ما أحلَّهم قعرَ جهَنَّمَ.

دلالةُ إعادَةِ الفاعلِ مُظْهَرًا:

في إعـادة لفظ المجرمينَ تذكيرٌ بعِظَم ذنـوبِ المجرمينَ

أعادَ النَّظمُ الحكيمُ الفاعلَ مُظْهَرًا في قولِه: ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1]، رغمَ قُربِ وُرودِه في قولِه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ تذكيرًا بعظيمِ ذنبهم الذي استحقّوا به الحلولَ في قعرِ جهنَّم، وفيه كذلك من التَّوبيخ والتَّأنيبِ ما يَردَعُ المجرمينَ في الدُّنيا.

سِرُّ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليَّةِ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾:

بيـانُ سَـفَـهِ المـجـرمـينَ في التَّكذيبِ بجهنَّم وظهورِها ظهورًا بيِّنًا

قيَّد النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ لبيانِ سَفَهِ تكذيبِهم بجَهَنَّم، فاتَّضحَ اتِّضاحًا بيِّنًا بظهورها للنّاس، وبأنَّهم يتردَّدون خلالَها، كما تَردَّدوا في إثباتها حين أُنذِروا بها في الدُّنيا[2]، ففي هذا القيدِ من التَّوبيخِ والتَّقريعِ ما يَرْدَعُ المجرمينَ المُكذّبينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَطُوفُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شـدَّةُ ألـمِ المُـجـرمـينَ وتـجـدُّدُه؛ لإنكارهم الآخرةَ وشرائعَ الإسلامِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن حالِ المجرمينَ بعد إلقائهم في قَعْرِ جهنَّم، بمادَّة الطَّوافِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الطَّوافَ هو دَورانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحَفَّ به، ثمَّ يُحْمَلُ عليه[3]، والمعنى المحوريُّ: غِشْيانُ الشَّيءِ، بغلَظٍ أو قوَّةٍ، غِشْيانًا يَعُمُّ حدودَه: جوانبَه أو أعلاه، ومعنى ﴿يَطُوفُونَ﴾ هاهُنا:

(1) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).

يمشونَ بين مكان النّارِ وبين الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النّارِ؛ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فلاحَ لهم الماءُ، فذهبوا إليهِ، فأصابَهم حَرُّهُ، فانصَرَفوا إلى النّارِ دَوالَيكَ، وهذا كَقَولِهِ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29][1]، وفي هذا من النَّكالِ والعذابِ ما يدلُّ على اضطرابِ حركتِهم وفَرْطِ أَلَمِهم، وعبَّرَ بصيغةِ المضارعةِ؛ لبيانِ تجَدُّدِ طوافِ هؤلاءِ المجرمينَ بألوانِ العذابِ والمهانةِ، وفيه كذلك استحضارٌ لهذا الحالِ الشَّنيعِ، فحَركتُهم ماثلةٌ أمامَ الأعينِ، تشدُّ انتباهَ المُتلقّينَ، وفيه كذلك توبيخٌ وتشنيعٌ على رفضهم لشرائعِ الإسلامِ، فكأنَّهم في قَعْرِ جهنَّمَ مقهورون على الطَّوافِ بالعذابِ بعد أن رفضوا الطَّوافَ حولَ الكعبةِ المُشَرَّفة في الدُّنيا.

سِرُّ تَقييدِ الطَّوافِ بالظَّرفِ ﴿بَيْنَهَا﴾:

طوافُ المجرمينَ مِن تَصليةِ النّارِ إلى شربِ الحميمِ والصَّديدِ

قيَّد البيانُ القرآنيُّ طوافَ المجرمينَ في قعرِ جَهَنَّم بالظَّرفِ ﴿بَيْنَهَا﴾؛ لبيانِ حَدَّي طوافِهم، وهو بين التَّصْليةِ بالنّارِ وبينَ شربِ الحميمِ[2]، فهُم لا يَنفَكّونَ عن العذابِ، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]؛ لأنَّهم يخرجون، فيَستَغيثونَ، فيَظْهرُ لهم من بُعدٍ شيءٌ مائعٌ هو صَديدُهم المَغْليُّ، فيظنونَهُ ماءً، فيَردون عليه، كما يَردُ العطشانُ، فيقعونَ، ويَشربون منهُ شُربَ الهيم، فيجدونَهُ أشدَّ حَرًّا، فيقطع أمعاءَهم، كما أنَّ العطشان إذا وصل إلى ماءٍ مالحٍ لا يبحث عنهُ، ولا يذوقُه، وإنَّما يشربُه عَبًّا، فيُحرقُ فؤادَه، ولا يُسَكِّنُ عطشَه[3].

إذا استغاثَ المجرمونَ؛ أُغيثوا بالحميمِ والصَّديدِ نكالًا بهم

سِرُّ تَقييدِ الطَّوافِ بـ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾:

أمّا الطَّرفُ الآخرُ من حَدَّيْ طوافِ المجرمينَ؛ فهو الماءُ المَغْليُّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 264.
(2) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 68.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 369.

وعُصارةُ أهلِ النّارِ، فهُم يتردَّدون بين نارِها وبين ما غَلَى فيها من مائعِ عذابِها، الذي يغلي منذُ خلقَ اللّهُ جَهَنَّمَ، فيعاقبُ بينهم وبينَ تصليةِ النّارِ، وبين شربِ الحميم، وقيل: إذا استغاثوا من النّارِ، جُعِلَ غياثُهم الحميمَ، وقيل: يُغمَسون في وادٍ في جهنَّم يجتمعُ فيه صديدُ أهلِ النّار، فتنخلعُ أوصالُهم[1].

الغرضُ من تَنكيرِ ﴿حَمِيمٍ﴾، وسِرُّ وصفِه بـ﴿ءَانٍ﴾:

تـوكـيـدُ شـدَّةِ غَـليانِ الحميمِ لقطعِ الأمـلِ في أيِّ رجاءٍ

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ الحميمَ بأنَّه ﴿ءَانٍ﴾؛ وذلك لأنَّه لمّا كان اسمُ الحميمِ من الأضدادِ يُطْلَق على الحارِّ والبارد؛ فقد بيَّن أمرَه بأنَّ حَرَّه قد بلغ الغايةَ التي ليس وراءَها غايةٌ في الحرارةِ والغَلَيانِ[2]، وقد يكون المرادُ بـ﴿ءَانٍ﴾ أنَّ العذاب بالحميم حاضرٌ، وبه سُمّي الحالُ بـ(الآن)؛ لأنَّه الحاضرُ الموجود، فإنَّ الماضيَ لا تَدارُكَ له، والمستقبلُ أملٌ، وليس لنا إلّا (الآن)، ثمَّ (الآن) ليس بثابتٍ طرفةَ عينٍ؛ لأنَّ الآنَ هو الجُزءُ المشتركُ بين زمانَيْن، فهُم دائمًا يتردَّدون بين عذابَي النّارِ المُذيبَةِ للظّاهرِ، والماءِ المُقَطِّعِ بحَرِّه للباطنِ، لا يزالُ حاضرًا لهم، تَرَدُّدَ الطّائفِ الذي لا أوَّلَ لتَردُّدِه ولا آخِرَ[3].

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذِكـر شِـدَّةِ العذابِ والإذلالِ جـاءَ التَّـقـريـرُ، والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من العذاب الشَّديدِ، والإيلامِ العنيفِ، والطَّوافِ المهينِ، وفيه من التَّرهيبِ والتَّخويفِ ما يَصدُّ عن سلوكِ سبيلِ هؤلاءِ المجرمينَ المُعذَّبينَ.

بيانُ المُرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّـخـويـفُ من العذابِ الشَّديدِ والإذلالِ المُهينِ مِنَّةٌ كبرى

اشتملت الآيةُ على بيانٍ لطوافِ المجرمينَ بينَ النّار الحاميةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 67.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنو، أني).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 178.

والحميمِ والصَّديدِ، ورغمَ ذلك، فقد عقَّبَ النَّظمُ بالتَّذكير بالآلاءِ، وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ فإنَّ مِن جُملتِها النِّعمةَ الحاصلةَ بهذا التَّخويف، وما يحصلُ به من التَّرغيب في الخير، والتَّرهيب عن الشَّرِّ[1].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 167.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"